**شعر رثاء الإمام الخوئي (قُدِّس)**

**دراسة في الموضوع والفن**

**الأستاذ المساعد الدكتور حسين لفته حافظ**

**مركز دراسات الكوفة \ جامعة الكوفة**

**المقدمة**

الرثاء فن من الفنون الشعرية الجميلة الذي يجمع بين روعة الخيال وعمق العاطفة وحرارة المشاعر مضافا إليها جمال الحقيقة وصدق الواقع الذي تعكسه تلك الأخيلة الرثائية الرائعة وقد لاحظنا من خلال اطلاعنا على القصائد الرثائية التي قيلت بحق السيد الخوئي أنها كانت تمتاز بذكر محامده، فضلا عن هذا كانت هذه القصائد متباينة من حيث قوة القصيدة وضعفها، وذلك حسب تمكن الشاعر من غرضه وإجادته في ذلك الغرض، فالبعض من تلك القصائد كان على درجة عالية من الجودة، اذ استطاع الشاعر فيها ان يحول دموعه ولوعته الى خيال جميل ولفظ عذب شجي يترك في نفس سامعه أثرا عميقا وصادقا.

اما عن موضوع الدراسة فهو شعر رثاء الإمام الخوئي (قدس) الذي حفل بكثرة الصور الفنية التي عبر الشعراء من خلالها عن تأثرهم الكبير بشخصية المرثي، وتحاول هذه الدراسة ان تسلط الضوء على جهود هؤلاء الشعراء فيما يتعلق بالصورة الفنية وطبيعة مكوناتها وأنماطها الفنية في شعرهم ا الذي قامت بنشره مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية بنشره تحت عنوان (رثاء القيم)([[1]](#footnote-1)) وهي قصائد مستوحاة من حياة الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (قد س) فضلا عما قام به الباحث محمد سعيد الطريحي بجمعه تحت قسم (الشعر) في العدد الخاص من مجلة الموسم الذي كرسه لدراسة شخصية الإمام الخوئي المرجع الشيعي الأكبر([[2]](#footnote-2))، الذي تعد شخصيته من ابرز الشخصيات العلمية، فهو عالم ومرجع كبير نال المرجعية في التقليد وحاز التفرد في التدريس، وجمع بين أصناف العلم، وقرن بين العلم والتقوى، وهو ممن لا نظير لجامعيته الا في السلف الصالح من أساطين علمائنا وأعلام رجالنا على حد قول أكثر الدارسين لشخصيته([[3]](#footnote-3))، ويعود الفضل في ذلك الى علمه وبيانه، فقد جمع بين أصناف العلم وشدة انكبابه على الاطلاع والتتبع، وقرن بين العلم والتقى وأخذه بالعمل الصالح من وراء العلم، وتمسكه بإتباع خطوات الدين، وقد أشار الى كل هذه الأمور الشعراء في صورهم الفنية التي أبدعتها قريحتهم الشعرية، ويهدف البحث الى تناول هذا الشعر الرثائي بالدراسة والتحليل بغية الوقوف على جوانب الفن فيه، واستخراج مكامن الجودة منه وذلك بإتباع المنهج الفني التحليلي، الذي يحاول الوقوف عند طبيعة الصورة الفنية محللا مكوناتها الفنية، وتحديد الطريقة التي استطاع الشاعر من خلالها التأثير في المتلقي.

 لقد تناول البحث دراسة مصادر الصورة الشعرية عند الشعراء، وتوقف البحث أيضا عند وسائل الصورة البيانية.

 وبعد قراءة شاملة لهذا الشعر ظهرت ملامح الصورة الفنية التي لجا إليها الشعراء في رسم شخصية المرثي، ولاحظنا تنوع هذه الصور واختلافها من شاعر الى آخر، فقد اتخذت بعض الصور من فن التشبيه أسلوبا لها، وهي الأكثر ترددا عندهم، وهناك صور أخرى تتخذ من فن الاستعارة مادة لها، فضلا عن الصور المجازية الواردة في شعرهم.

 ومن الجدير بالذكر ان اغلب الشعراء الذين رثوا الإمام الخوئي قد تأثروا بأسلافهم من أمراء الشعر العربي وخاصة في تشبيه المرثي بالبدر و الشمس والنجم العالي([[4]](#footnote-4))، فضلا عن التشبيهات المعنوية كتشبيه المرثي بأنه نور مستمد من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وتمتاز لغة الشعراء الشعرية بالسلاسة والوضوح والابتعاد عن التعقيد والغموض.

 فضلا عن هذا كان للاستعمال المجازي دور مهم في رسم مكونات الصورة، وقد اتكأ عليه اغلب الشعراء، ويعود السبب في ذلك الى إحساسهم بأهمية المجاز في الاستعمال الشعري لأنه يضفي قيمة جمالية على النص ويعطي نوعا من الإحساس.

 ومن الجدير بالذكر ان تصوير الشعراء داخل القصيدة الواحدة لم يقتصر على شخصية الإمام الخوئي (قدس) إنما تعداه الى رسم صورة للطاغية المستبد، وكأنهم يخلقون نوعا من الموازنة بينهما يظهر من خلاله استبداد وظلم وقسوة الحاكم الطاغية، وانه السبب وراء الخراب والدمار الذي أصاب مفاصل الحياة من خلال ما يظهره الشعراء من صور فنية تحمل طابع السخرية والذم له.

لقد استطاع الشعراء الوصول الى تحقيق غرضهم الفني بفضل توظيفهم لفن حسن التخلص من موضوع الى آخر, واذكر من تلك القصائد قصيدة الدكتور محمد حسين الصغير ومطلعها:

أرثيك أم ارثي بك التنزيلا فلقد فجعت الدين جيلاً جيلا

وقصيدة الدكتور احمد الوائلي ومطلعها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أبا الأوصياء عزاء بمن |  | أذاب الفؤاد وأجرى العيون |

وقصيدة الدكتور محمد بحر العلوم ومطلعها:

اعرني فما كي استسيغ رثائيا لمن كان للإسلام عزا وحاميا

وقصيدة الأحزان النجفية للشاعر علي مهدي :

زادت مآسيك فاحزن ايُّها النجف وطال ليلك فاندب خير من سلفوا([[5]](#footnote-5))

 لقد لاحظ البحث تعرض بعض الشعراء في رثاء الإمام الخوئي (قدس) الى الأحداث التي حصلت في زمانه وخاصة الضغوط التي تعرض لها السيد طيلة مدة حياته من قبل السلطة الجائرة آنذاك.

لقد حاول البحث الأخذ بالمقاييس البلاغية في دراسة النص، والوقوف على لغة القصيدة وأسلوبها أي قصيدة الرثاء وإظهار جودة القصيدة وسمو عاطفة الشعراء، أمّا عن ابرز النتائج التي شخصها البحث فاذكر منها: إن الشعراء كانوا ينتقلون على وفق ما يقتضيه الموقف والمعنى من أسلوب الى أسلوب، ومن الجمل الاسمية الى الجمل الفعلية، ومن الجمل الخبرية الى الجمل الإنشائية، فضلا عن هذا اعتمد بعض الشعراء في التصوير على أسلوب الوصف ومن ذلك ما ينزل الموت بالإنسان من مواجع حين يرى أحبابه يرحلون، ومن ذلك كثرة وصف نعش الإمام الخوئي الراحل.

لقد توصل البحث إلى ان الصورة الشعرية تعد وسيلة الأديب لإثارة العاطفة بطريقة فنية، يستطيع الشاعر من خلالها إعادة خلق الحقائق الخارجية المختلفة وفق رؤيا مركزة مستمدة من إحساس الشاعر بالوجود.

 وآخر قولنا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد الأمين وآل بيته الطيبين الطاهرين.

**المبحث الأول:**

**القيم الخلقيَّة في شعر رثاء الإمام الخوئي (قدس)**

**أولا: الكرم:**

 يعتبر الكرم من الأسس الخلقية التي تمثل صورة الإنسان المثالي عند العرب " ثم هو بعد ذلك كله صورة من صور الخلق العربي الأصيل الذي درجوا عليه فصار طبعا متوارثا فيهم " ([[6]](#footnote-6))، أي ان الكرم قيمة خلقية إنسانية عامة، ولاسيما عند العرب، فإنه يؤلف فيضا وجدانيا، "إذ كان العربي مفضالا بطبعه؛ لأنه يحيا ببادية شحيحة العطاء، فآلى على نفسه إلا جودا وكرما، وهو يرضع بلبان السخاء والبذل والإيثار، فثبت نبعه عاشقا للجود معتزا ومفتخرا به حلا وترحالا، يرقب الضيوف أنى حلوا "([[7]](#footnote-7))، وكان ذلك من شرف خلقهم ورفعتهم الذي كانوا يطلبونه على وفق قول حكيم العرب أكثم بن صيفي: ((ذللوا أخلاقكم للمطالب،وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم... وتحلوا بالجود يكسبكم المحبة ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر))([[8]](#footnote-8)).

ولعل الشاعر محمد حسن الزاير أجاد في تصوير صفة الكرم في قوله:

نظرت بالأمس نحو الشمس منذهلا فهالني ان أراها تلبس الخجلا

فقلت يا شمس ما الخطب الذي حصلا فجاوبتني وقالت سيدي رحــلا

 قد كان يغدقني من فيضه حللا بالنور ابعثها للكــون ان ســــــالا ([[9]](#footnote-9))

 فالشاعر هنا يستعمل أسلوب الحوار من اجل تصوير صفة الكرم بطريقة المجاز من خلال تخيل ما دار بين الشمس والشاعر بخصوص كثرة عطاء المرثي.

**ثانيا: الشجاعة:**

 الشجاعة من الصفات الكريمة التي أحبها العربي منذ القدم ونشا على تعلمها بحكم بيئته التي تتطلب الشجاعة من قبيل مواجهة الخصوم والوقوف ضد كل ما يعرض حياتهم للخطر، لهذا كان الرجل هو سيد الموقف " على اعتبار قوته البدنية المادية والمعنوية التي جاءت من كونه أبا او أخا او زوجا يتصدى لحماية الأهل والمال "([[10]](#footnote-10))، فالشاعر يصف ممدوحة بالقوة، والشجاعة، والحلم، والأمانة، وأنَّه حريص على حماية الدعوة، ورعاية حقوقها، فضلاً عن تواضعه، وحسن سيرته ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر:

قد كنت للأحرار خير مشجع وعلى الطغاة مواضيا ورماحا ([[11]](#footnote-11))

وقول الشاعر:

يا للرزية عمّتنا فواحدها حيث اختفى من عرين الغابة الاسدُ ([[12]](#footnote-12))

 ومن الشعراء من ذهب إلى ان السيد زلزل عرش الظالمين في قوله:

زعزعت عرش الظالميـ ن السافكين دمَ " الشهيدِ " ([[13]](#footnote-13))

أعطى الشعراء الشجاعة زخما قيميا كبيرا، فهي عندهم من المثل الإنسانية التي يتحلى بها سادة القوم وأصحاب الكرامة، حتى تصبح التضحية بالنفس حدودا تتسع لها تلك القيــمة الخلقية عند الشاعر.

**ثالثا: الوفاء**

رثى الشعراء السيد الخوئي بمعاني الوفاء فكانت أبياتهم لا تعدو أن تكون مدحاً بالإباء، والشموخ، وعلو الهمّة، وهي معانٍ طالما ردَّدها الشعراء في مدائحهم، مسبغين على المرثي صفات أهلته لتسنّم قيادة الأمّة الروحية.

قال الشاعر:

تسلمت الزعامة عُمَر دهــــرٍ ولم تقبل لغيــــــرك بالمسير

حفظت شريعة المختار ممن تردى بردتي (مينٍ) و(زُورِ)([[14]](#footnote-14))

وهذا شاعر آخر يصور وفاء المرثي في قوله:

وصنت آلهدى من طغاة العدى ولكن عليك العَدوُّ اعتدى ([[15]](#footnote-15))

 إنَّ الفضل، والعلا، والكرم، والعدل، معانٍ أخلاقيَّةٌ رفيعة اتى عليها الشعراء، وهي معانٍ طالما افتخر بها العرب، وأحبّوا أن يمدحوا بها، وهي من الصفات التي حثَّ الإسلام على تمثّلها، والتحلّي بمزاياها.

**رابعا: القناعة والعفة:**

أكد حكماء العرب منذ زمان بعيد على القناعة لأنهم وجدوا فيها كرامة الإنسان وعزته ولهذا ورد في كتاب عيون الأخبار قولهم: " أنت اخو العز ما التحفت القناعة " ([[16]](#footnote-16))، وقد أشار الشاعر الى هذه القيمة في قوله:

فما شهدت أيامنا مثل شخصة وما عرفت الا لديه المكارمُ ([[17]](#footnote-17))

 تعدّ العفة سمة إنسانية عامة وقد غلبت عليها قيمتا (الشجاعة) و(الكرم) لحاجة العربي إليهما، والتعفف يعدّ المنفذ الوحيد الذي يتخلص به الفرد العربي من الفجور، وبالإمكان أن نلمح ذلك في الشعر العربي العفيف، وقد استقطبت إعجاب الشعراء.

**خامسا: العلم:**

وهي صفة مجّدها الدين الإسلامي ونص عليها القران في قوله تعالى:" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" ([[18]](#footnote-18))، ومن الشعراء من أشار الى هذه القيمة في قوله:

وتوقدت فيك العلوم ضمائرا انّ الغنيّ توقُد وغديـــر ([[19]](#footnote-19))

وقول الشاعر:

يا كعبة العلم يا خوئي يا عالما كمك طائف طاف في افكاركم وسعى ([[20]](#footnote-20))

والشعراء بحديثهم هذا انما يؤكدون على صفة العلم التي تمتع بها السيد رحمه الله وهي صفة لا يختلف عليها اثنان فقد شهد له الداني والقاصي بالعلمية ورجاحة العقل.

**المبحث الثاني:**

**الاقتباس القرآني**

استطاع الشعراء الذين كتبوا قصائد في رثاء الإمام الخوئي (قدس) ان يوظفوا النص القرآني في أشعارهم وقد اختلفت صور هذا التوظيف فمنهم من كان يأخذ المفردة القرآنية ومنهم من كان يأخذ نصا قرآنيا ومنهم من كان يأخذ المضمون القرآني ويستفاد منه في نصه الشعري، وكذلك كان له اثر في نوعية النص الشعري ومدى تأثيره في المتلقي، فالشعراء تأثروا كثيرا بفصاحة القران ومعانيه السامية وليس هناك نص يدانيه في الفصاحة والتأثير الروحي، ومن ثم كانت المعاني القرآنية السامية موضع تمثل من قبل الشعراء وفيما يلي نماذج لهذا الاقتباس القرآني:

 توظيف المفردة القرآنية:

ومن هذه المفردات (لفظ الجلالة الله، وطه، والشرع، الروضة، والهدى، الافك، النور، والمشكاة، والشفاعة، وعاصم، والنعيم، والخلد، والجنة، وجهنم، وطوى، وغيرها) ومن ذلك قول الشاعر يرثي السيد الخوئي :

رعى شرعة الله والمصطفى وما لابن (طه) زمام رعي ([[21]](#footnote-21))

وقول الشاعر أيضا:

يا مسجد الخضراء فزت بروضة قدسيةٍ حوت الهدى بعلائه ([[22]](#footnote-22))

وقول الشاعر:

ومن سناك اشرأب النور من أفق المشكاة اذ راح في المصباح ينسرب([[23]](#footnote-23))

نلاحظ ان اغلب هذه المفردات مأخوذة من القرآن الكريم، والفرق فيها ان الشاعر كان يستعملها استعمال مغاير مما يعطيها بعدا آخر ومعنى مختلف بحسب مراد الشاعر.

**المبحث الثالث**:

**استحضار الرموز الدينية**

استطاع كثير من الشعراء الذين رثوا الإمام الكاظم عليه السلام من توظيف الرموز الدينية متمثلة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام فهذا شاعر يشبه السيد الخوئي بأنه يحمل راية الدين مكللة بنور احمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله:

يا حامل الهبة الكبرى مكللة بنور (احمد) يهدي سائر الأمم

 وهناك شاعر آخر يشبه عملية دفن السيد الخوئي بدفن الإمام المرتضى عليه السلام في قوله:

أشبهت في دفنٍ أباك (المرتضى) والبضعة الزهراء امّك (فاطما)

 نلاحظ ان الشاعر يؤكد على مسالة مهمة هي نسبة السيد الخوئي الى أبيه الإمام علي عليه السلام وأمه فاطمة الزهراء سلام الله عليها، وفي هذا إشارة واضحة الى رمزية الظلم الذي تعرض له السيد وهذا الظلم ليس جديدا فهو يمتد الى زمن قديم، لان السيد الخوئي ليس رجلا عاديا إنما هو إمام وقائد روحي لهذه الأمة ويستحق من السلطات الحاكمة الكثير الا انها سلطات غاشمة وظالمة ومتسلطة على رؤوس الناس فليس جديدا ما مر به الإمام الخوئي وله أسوة حسنة بأجداده الكرام.

ومن الشعراء من استطاع ان يوظف قصة الإمام الحسين عليه السلام، ورمزية هذه الشخصية العظيمة في قوله:

في جنبه روحُ (الحسين) وصنوهِ ليث يشابُه في الفعال ضرغاما

فروح الإمام ليست روحا عادية إنما هي روح الإمام الحسين عليه السلام فهو في أفعاله يقتدي بالإمام.

ويذهب شاعر آخر الى توظيف شخصية الإمام جعفر الصادق عليه السلام مركزا على قضية فقه الإمام ورسوخ قدمه في هذا المجال في قوله:

ويا حاملا من فقه (جعفر) روحه عليك سلامُ الله من كل مسلم

 وهذا شاعر آخر يستحضر شخصية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في قوله:

ان (موسى) قيده في رجله منذ الفٍ فارحم الساق المضاما

 نلاحظ ان الشاعر يركز على مظلومية الإمام من خلال الإشارة الى (القيد) وعلاقة ذلك بما تعرض له الإمام طوال مدة حكم الدولة العباسية التي لم تنصف الامام وعاملته معاملة ظالمة ليس لشيء سوى انه أحق من السلطات القائمة فهو امام عدل.

اما الشاعر فقد استطاع ان يستحضر شخصية الإمام المهدي (عج) في قوله:

ما خلتُ تمضي والحوادث جمّةُ من قبل رؤيتك الإمام (القائما)

فهذا الشاعر يظهر الحسرة على ان المنية وافت الفقيد قبل ظهور الإمام (عج) أي انه كان يتمنى ان يشهد السيد عصر الظهور، لأنه وجد في شخصيته ما أهله لان يكون من أنصار الإمام القائم المخلصين في نصرة الدين وفي ذلك ذكر لمحامد الفقيد بصورة غير مباشرة.

**المبحث الرابع:**

**الصورة الفنيّة**

على الرغم من تعدد المناهج النقدية واختلافها في النقد الأدبي الحديث الا ان الصورة الفنية ظلت عاملا مشتركا توقفت عنده المناهج، وان اختلفت جهات تناولها لها فإنها أجمعت على أهميتها وعدّتها جوهر العملية الشعرية، وربما يرجع تعدد وجوه الصورة الى تعدد الروافد الشعرية التي تغذي بنية الصورة من تشبيه الى استعارة الى كناية ورمز وما الى ذلك من أشكال الصورة الفنية.

اما قضيّة الصورة الفنية عند القدماء فقد أشار بعض الباحثين الى أن النقد القديم عالجها معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية فاهتم كل الاهتمام بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية وتميز أنواعها وأنماطها المجازية والتفت نوعا ما الى الصلة الوثيقة بين الصورة والشعر باعتبارها إحدى خصائصه النوعية التي تميزه عن غيره ([[24]](#footnote-24)).

والشعراء الذين كتبوا قصائد في رثاء الإمام استعملوا أساليب متعددة في التعبير عن صورهم الفنية، فمنهم من استعمل المجاز ومنهم من استعمل التشبيه ومنهم من استعمل الاستعارة وما الى ذلك.

**وسائل أداء الصورة:**

أسلوب المجاز:

تنوعت وسائل أداء الصورة الفنية عند الشعراء الذين كتبوا قصائد رثاء بحق السيد الخوئي (قدس) فمنهم من لجا الى التعبير المجازي ليكشف عن المعنى ويصوره أحسن تصوير انظر الى قول الشاعر:

آلت إليك أمور الشرع تنظمها رأيا فرأيا بعقدٍ غير منفصم

واستطاع شاعر آخر ان يصور لنا ربوة النجف وهي حزينة على فقد المرثي في قوله:

 يا ربوة النجف المكلوم هل بقيت ذكرى وان طرقت في القلب كالحلم

فالمعروف ان الربوة لا تنادى إنما المقصود هم أهل تلك الربوة وساكنيها، والصورة الأخرى تتمثل في تشبيه الذكرى بالحلم، والشاعر هنا نجح في رسم صورته لان العلاقة بين الذكرى والحلم علاقة تتمثل في ان الذكرى والحلم كلاهما يمر على الانسان مرورا سريعا على الرغم من الأثر الذي يتركه كلاهما في نفس الإنسان.

ومن الشعراء من لجا الى أسلوب التشبيه ليعبر عن المعنى المقصود نحو قول الشاعر:

الست القطب دارت حولك الأعلام والأمم

الست النور شق الليل وانـــجابت به الظـــــلم()

ومن الجدير بالذكر ان بعض الشعراء أجاد في توظيف المجاز خدمة للصورة الفنية في قوله:

والفجر بالآهات لا أنفاسه تشفي الغليل ولا النسيم عليلا

 فقد جعل الشاعر الفجر يتنفس، للعلاقة الزمانية بين الفجر وبين استيقاظ الكائنات في ذلك الوقت ويبدو ان الشاعر هنا قد تأثر بقوله تعالى: "والصُبح اذا تنفس"، وهذا من الأمور الطبيعية ان يتأثر الشعراء بالنص القرآني فهو نص معجز، يشتمل على صور فريدة جاءت من النظم المعجز.

أسلوب الاستعارة:

ومن الشعراء من استعمل أسلوب الاستعارة في رسم صورته الفنية نلاحــظ هذا في قول الشاعر:

من للأيادي الناصعات يمدها بحر من الإنعام والإكرام

فاليد هنا استعارها الشاعر ليعبر بها عن الكرم لان اليد هي وسيلة العطاء.

أما الشيخ جعفر آلهلالي فقد استعمل الاستعارة في قوله:

فيا لخطب على الإسلام كلكله أناخ مذ طاح من أبياته عمد

ومن الباحثين([[25]](#footnote-25)) من ربط بين الاستعارة وبين وقع الاستعارة في نفس القارئ، أو ما يسمى بالتأثير الجمالي لتلك الاستعارة حيث يشعر القارئ من خلال هذا الربط غير المسبوق لدلالتي المستعار والمستعار له بأنه أمام رؤية جديدة لم يتعرض لها من قبل مما ينتج نوعا من التقبل الجمالي لهذا الكسر لقوانين الدلالة اللغوية.

ومن الشعراء من استعار صورة الأسد للمرثي وهي صورة مكررة استعملها الشعراء بكثرة جاء هذا في قول الشاعر:

يا للرزية عمتنا فوادحها حيث اختفى من عرين الغابة الأسد

لقد استعار الشاعر صورة الأسد للمرثي بجامع القوة والشجاعة وهي الغابة، فاختفاء الأسد أي المرثي ولد كثرة الرزايا حتى عمت الفوادح لان وجوده كان الرادع الذي يقف بوجه الصعوبات التي تواجه الناس.

كذلك وظف الدكتور الصغير أسلوب الاستعارة في رثاء السيد الخوئي في قوله:

قالوا: أتعرفه ؟ فقلت بداهة جبلا أشم وصارما مصقولا

فالمرثي هنا مرة يكون جبلا أشم ومرة أخرى يكون صارما مصقولا، ولا تخلو هذه الصورة من المبالغ الجميلة فالجبل ليس أي جبل انما هو جبل أشم وكذلك الصارم ليس أي صارم انما هو الصارم المصقول.

ومن الشعراء من استعار صورة النجم للمرثي في قوله:

يا أيها النجم المعفّر في الثرى خداً برغم النائبات أسيلا

فمن دون شك النجم المعفر هنا هو المرثي والقرينة المانعة هي الخد الأسيل فالنجم ليس له خد انما استعار الخد من الإنسان .

اما السيد حسين الصدر فقد استعار البكاء للمعالي للتعبير عن شدة الحزن على الفقيد في قوله:

على الخوئي بكت المعالي وضجت بالأسى من دون شك

**أسلوب التشبيه:**

ومن الشعراء من لجأ الى استعمال أسلوب التشبيه في التعبير عن صوره ومعانيه لان التشبيه (يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا)([[26]](#footnote-26)) أي ان من معايير الحسن في الصورة التشبيهية يأتي من خلال إخراج الشيء المصور من حالة الغموض الى صفة الوضوح وتتمثل بإخراجه من صفة اللاحسية الى الحسية، من هنا استعمل الشاعر التشبيه في قوله:

وكأنها في نعيه مذ أفصحت نعت (الحسين) بكربلاء قتيلا

 فالشاعر هنا يشبه نعي السيد الخوئي بنعي الإمام الحسين عليه السلام فكلاهما ينتهي نسبه الى الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فهم من شجرة واحدة، ومن ثم فان الشاعر يريد ان يصور جلل المصاب وشدته لهذا شبه وقع هذا الخبر بوقع خبر نعي الحسين عليه السلام، وعلى الرغم من المبالغة في هذا القول الا إنها مبالغة محببة تستسيغها النفس ويقبلها الذوق.

وذهب شاعر آخر الى تصوير دموع الغري وهو يبكي حزنا على الفقيد حتى تحولت دموعه الى نهر هائج جاء هذا في قوله:

ودموع الغري صارت كنهرٍ في هياج ونبعهُ الأحشاء

ومن الشعراء من استعمل التشبيه الضمني للتعبير عن المعنى في قوله:

إذا هوى علم منها رقى علم سبيكة التبر اذ يصفو تجلّيها

وقوله:

مثل الكواكب إشراقا ملالئة لا يستبين ضلا لا خطو ساريها([[27]](#footnote-27))

ومن صور التشبيه المكررة قول الشاعر:

أنت نجم يضيء في عالم الفكر وزاد العقول والأرواح([[28]](#footnote-28))

فالمشبه السيد الخوئي نجم ولا يخفى علينا العلاقة بين المشبه والمشبه به التي تتلخص بالسمو والارتفاع والنور الساطع، الا ان هذه الصورة استهلكها الشعراء الذين سبقوا شاعرنا، وهي صورة بسيطة واضحة لا تحتاج الى عناء من قبل المتلقي حتى يقف على أبعادها.

وهناك شاعر آخر يشبه السيد الخوئي بالشمس في قوله:

أيها الشمس، شمسنا في كسوف وأحاطت بكوننا الظلماء

ويتلخص جمال هذه الصورة في قدرة الشاعر على الربط بين الشمس وصورة المرثي، والتعبير عن غياب المرثي بالظلمة التي أحاطت الكون.

أسلوب الكناية:

وهو أسلوب استعمله الشعراء بكثرة في رثاء الإمام الخوئي، فمنهم من كان يكني عن موصوف في قوله:

فعلت محياك الوسيم بشاشة تستقبل المتجمهرين قبولا

تضفي عليهم روعة ومهابة وجلالة ورعاية وشمـــولا([[29]](#footnote-29))

فالكناية هنا عن موصوف يتمثل بشخص المرثي، واختار الشاعر محيا المرثي ومن صفاته البشاشة والطلاقة في استقبال المتجمهرين، ولا يخفى على احد ان هذه الكناية تدل على كرم الممدوح.

وفي صورة أخرى كنى الشاعر عن شدة الحزن بقوله:

أو ان تشق لك القلوب مرارة او ان تفيض لك العيون مسيلا([[30]](#footnote-30))

فالقلوب لشدة الحزن على الفقيد تشق مرارة، كذلك العيون تفيض سيلا بالدموع على فقد المرثي.

ومن الشعراء من ذهب الى استعمال التعريض لبيان قبح صورة أعداء المرثي جاء هذا في قول الشاعر:

يا حفيد الرسول قد غبت عنّا في زمان طغت به الطُلقاء

ونساء العراق تبكي حيارى كل شبر بأرضـــــه كربلاء([[31]](#footnote-31))

فالطلقاء في البيت الأول إشارة واضحة الى سفلة الناس الذين تحكموا بمصير الخلق بعد غياب المرثي، وهي إشارة واضحة الى زمر النظام القائم آنذاك، أما في البيت الثاني فقد كنى الشاعر عن المجازر التي ارتكبت بحق الشعب، والتي حولت النساء الى جيش من الأرامل، وهو ما تمثل بالمقابر الجماعية التي خلفها النظام وقد كنى عنها الشاعر بأرض كربلاء.

ومن الشعراء من صور المرثي بأسلوب الكناية عن موصوف في قوله:

ويداك ترتجفان بالقلم الذي قد خط في كل الفنون فصولا([[32]](#footnote-32))

فالكناية هنا وقعت في قول الشاعر يداك ترتجفان بالقلم، في إشارة واضحة الى كبر المرثي واستمرار يته في طلب العلم وتدارسه، حتى ان هذا القلم لم يترك علما الا وقال فيه شيئا.

**المبحث الخامس:**

**لغة الشعر**

ليس هناك من شك في ان اللغة هي " الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستعمل الكلمة أداة للتعبير " ([[33]](#footnote-33))، ومن الملاحظ ان الشعراء الذين رثوا الإمام الخوئي تباينت استعمالاتهم للغة من حيث توظيف المفردات اللغوية القديمة وبين من لجا الى استعمال اللغة البسيطة اليومية، إلا إن توظيف المفردات اللغوية القديمة جاء ممزوجا بالتجديد في اللغة التراثية على وفق مقتضيات العصر ومتطلبات الحياة ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر محمد صادق العدناني :

جرى القضاء فأضحت بعدك الدارُ قفرا وغاب سنىً للدين نوَارُ

وقد هوت خيمة كنت العماد لها وقطبها ورحى الإسلام دوارُ

وكنت كالشمس في دنيا العلوم وقد رنت إليك من الأقطار ابصارُ([[34]](#footnote-34))

تلاحظ كيف ان الشاعر زاوج بين اللغة التراثية واللغة المعاصرة من خلال توظيف مفردات (قفرا، سنى، رنت) في حين امتازت بقية المفردات بالبساطة والوضوح الذي يكاد يقربها من الحديث اليومي.

ومن الجدير بالذكر ان الشاعر يسعى إلى خلق علاقة جديدة بين " الرمز الذي هو جرس الكلمة لا الكلمة نفسها،وبين استجابة الذوق إليه، ويجعل هذه الاستجابة هي المعنى..." ([[35]](#footnote-35))

ولذلك فمن الطبيعي أن تتحشد رؤى لغوية مشكلة ما يطلق عليه عادة (قاموس الشاعر) الذي يميزه عن سواه، ومن الباحثين من يرى ان ليس كل شاعر قادر على ان يصنع قاموسه الخاص، وان يشكل رؤيته المتفردة، إنها منوطة بالشاعر الكبير الذي يحطم استعمال اللغة السائد ليقيم بدلها معمارا لغويا جديدا، أهم ما يميزه انه عاكس لتجربته الشعرية ([[36]](#footnote-36)).

ويكثر في قصائد رثاء الإمام الخوئي استعمال ألفاظ الدين والعلم والحزن وكل ما يتعلق بالصفات الحميدة من صدق وأمانة، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر محمد الجشي:

أسكنت من روض الجنان فساحا وهنيت منذ الأربعين صباحا

وكسيت من حلل الكرامة حلةً خضراء تعبق عنبرا فواحا

وعشقت تسبيح الملائك مؤنسا لصفاء روحك غدوة ورواحا

ورزقت حورا كالبدور وخالد الـ ولدان باسمة الثغور صباحا ([[37]](#footnote-37))

 لقد استعمل الشاعر لغة إيحائية تنقل المعنى من جهة الإخبار والإفهام الى جهة الانفعال والتأثر، والصوغ الجمالي (بفضل استعارة كلام معين يفقد معناه على مستوى اللغة الأولى، لأجل العثور عليه في المستوى الثاني)([[38]](#footnote-38)).

وتميَّز شعر الرثاء هذا بقوَّة العاطفة؛ لأنَّ الشاعر لا يقول هذا النمط من الشعر إلاّ في حالٍ انفعاليَّةٍ شديدةٍ، وإذا كان « المديح تكسبّياً في أكثره؛ فإنَّ الرثاء كان في معظمه صادقاً؛ ينجرف فيه الشاعر وراء قلبه، فيصف ألمه، وإحساسه بالعذاب لفقد من أحب »[[39]](#footnote-39)(4)، على أنَّ درجات هذا الصدق، وتلك العاطفة تتفاوت بحسب منزلة الفقيد، وقربه من قلب الشاعر، أو بما له من صفات حميدة، وخلال كريمة؛ تجعل منه محبَّباً إلى الناس جميعاً، وقريباً من قلوبهم.

**الخاتمة:**

اظهر البحث علاقة الأدب بالحياة من خلال شعر رثاء السيد الخوئي فقد مثل هذا الشعر الحياة وصورها من خلال الصور الفنية التي قدمها وعرضها عرضا جميلا ومؤثرا لشتى جوانبها حتى بدت ملامح المدة التي عاشها السيد من خلال القصائد الرثائية التي كتبها مجموعة الشعراء وقد أجادوا فيها حتى أصبحت سببا لتخليد الأحداث وصورها التي وقعت زمن السيد (قدس)، فهي تلمس وتشاهد ولو بعد مضي زمن على وقوعها اذ بقيت العبارة المصورة لها وبقي التعبير الفني الجميل الذي عبر عنها آنذاك.

اظهر البحث ان شعر رثاء الإمام الخوئي يمتلك مقومات فنية عالية تجعل منه شعرا يستحق الدراسة، فقد وظف الشعراء مختلف الأساليب البيانية ومنها التشبيه وقيمته الفنية وتأثيره على الشعر، فهو يكشف عن قابلية الشاعر حتى ان خلو مجمل الشعر منه يعد منقصة.

بين البحث التأثير الديني الكبير في شعر رثاء السيد الخوئي من خلال لغة الشعر فقد حفلت هذه اللغة بالمفردات القرآنية والإسلامية، ويبدو ان هناك بين شخصية المرثي واللغة الشعرية، فقد أثرت هذه الشخصية فيما كتبه الشعراء من قصائد حزينة.

لاحظ البحث ان الصورة الفنية التي جاء بها الشعراء صورة رفيعة عالية جميلة بديعة استوحت من الإسلام مفهومها ومن القيم شكلها ومن فن الشاعر براعتها، ومن صور الرثاء الفاتنة التي تدل على تأثر بالغ عند الشاعر.

**مصادر الدراسة**

1. القرآن الكريم
2. بنية اللغة الشعرية، جان كوهين، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1986م.
3. الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، الدكتورة بشرى محمد علي الخطيب، بغداد، 1977م.
4. رثاء القيم، قصائد مستوحاة من حياة الإمام أبو القاسم الخوئي، مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، الطبعة الثانية، 2000م.
5. الشعر العراقي الحديث 1945-1980 في معايير النقد الأكاديمي العربي، الدكتور عباس ثابت حمود،الطبعة الأولى 2010م.
6. الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، الدكتور عز الدين اسماعيل، ط1، دار العودة، بيروت – لبنان، 1982م.
7. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، الدكتور جابر عصفور، دار الثقافة، القاهرة،1974م.
8. العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي(ت328هـ)، تحقيق د. محمد التونجي، نشر دار صادر،بيروت،لبنان، ط2(1427هـ/2006م).
9. عيون الأخبار، ابن قتيبة، القاهرة، دار الكتب، 1963م.
10. القيم الخلقية في شعر شعراء الطبقة الأولى الإسلاميين، عبد اللطيف شنشول، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الكوفة، 2010م.
11. كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر، ابو هلال العسكري، تحقيق:علي محمد البجاوي،. دار احياء الكتب العربية،القاهرة،1952م.
12. اللغة بين المعيارية والوصفية، الدكتور تمام حسان، دار عالم الكتب، 1995م.
13. معالم الشخصية العلمية عند الإمام الخوئي، الدكتور عبد آلهادي الفضلي، بحث منشور ضمن موسوعة الإمام الخوئي الرجع الشيعي الأكبر.
1. - صدر هذا الكتاب بطبعة ثانية عام 2000م من قبل مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي. [↑](#footnote-ref-1)
2. - صدر هذا العدد الخاص ضمن إصدارات مجلة الموسم في المكتبة الملكية لاهاي وهي موسوعة فصلية مصورة تعني بالآثار والتراث. [↑](#footnote-ref-2)
3. - ظ: معالم الشخصية العلمية عند الإمام الخوئي، الدكتور عبد آلهادي الفضلي:139. [↑](#footnote-ref-3)
4. - ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام:5. [↑](#footnote-ref-4)
5. - ينظر: رثاء القيم: 307, 357، 477, 519. [↑](#footnote-ref-5)
6. - الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام:58. [↑](#footnote-ref-6)
7. - ينظر: القيم الخلقية في شعر شعراء الطبقة الأولى الاسلامين: 177 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-7)
8. 3- العقد الفريد:1/229. [↑](#footnote-ref-8)
9. - ديوان رثاء القيم: 351. [↑](#footnote-ref-9)
10. - الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام: 76. [↑](#footnote-ref-10)
11. - ينظر رثاء القيم: 188 [↑](#footnote-ref-11)
12. - رثاء القيم: 203. [↑](#footnote-ref-12)
13. - رثاء القيم: 209. [↑](#footnote-ref-13)
14. - رثاء القيم:244. [↑](#footnote-ref-14)
15. - رثاء القيم: 200. [↑](#footnote-ref-15)
16. - عيون الأخبار: 3\ 185. [↑](#footnote-ref-16)
17. - رثاء القيم: 417. [↑](#footnote-ref-17)
18. - الآية 9 من سورة الزمر [↑](#footnote-ref-18)
19. - رثاء القيم: 259. [↑](#footnote-ref-19)
20. - رثاء القيم: 293. [↑](#footnote-ref-20)
21. - رثاء القيم: 82. [↑](#footnote-ref-21)
22. - رثاء القيم: 100. [↑](#footnote-ref-22)
23. - رثاء القيم: 135. [↑](#footnote-ref-23)
24. - ظ: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب:8 [↑](#footnote-ref-24)
25. - ينظر مصطلحات أدبية (الاستعارة)، مقال منشور في شبكة النبأ المعلوماتية. [↑](#footnote-ref-25)
26. - كتاب الصناعتين:243. [↑](#footnote-ref-26)
27. - ينظر رثاء القيم: 515. [↑](#footnote-ref-27)
28. - المصدر نفسه: 537. [↑](#footnote-ref-28)
29. - المصدر نفسه:522. [↑](#footnote-ref-29)
30. - رثاء القيم: 360 [↑](#footnote-ref-30)
31. - المصدر نفسه: 126. [↑](#footnote-ref-31)
32. - المصدر نفسه: 525. [↑](#footnote-ref-32)
33. - الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: 173. [↑](#footnote-ref-33)
34. - رثاء القيم: 237. [↑](#footnote-ref-34)
35. - اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 2001م، 112. [↑](#footnote-ref-35)
36. - ينظر الشعر العراقي الحديث جيل ما بعد الستينات، الرؤية والتحولات: 206. [↑](#footnote-ref-36)
37. - ديوان رثاء القيم: 187. [↑](#footnote-ref-37)
38. - بنية اللغة الشعرية:206. [↑](#footnote-ref-38)
39. 4- الرثاء في الشعر العربي: 5 – 6. [↑](#footnote-ref-39)